أشهر كتب التفسير فى العصر الحديث

لقد أعطى المفسِّرون الأوائل كتب التفسير حظها من المنقول والمعقول ، وتوافروا على المباحث اللُّغوية ، والبلاغية ، والنحوية ، والفقهية والمذهبية والكونية الفلسفية ثم فترت الهمم ، وجاء من بعدهم مختصرًا وناقلاً ، أو مفندًا ومرجحًا .

فلما جاءت النهضة العلمية فى العصر الحديث شملت فيما شملته « التفسير » وإليك أمثلة منه :

١ - الجواهر فى تفسير القرآن - للشيخ طنطاوى جوهرى

كان الشيخ طنطاوى جوهرى مغرمًا بالعجائب الكونية ، وكان مدرسًا بمدرسة دار العلوم فى مصر ، يُفَسِّر بعض آيات القرآن على طلبتها ، كما كان يكتب فى بعض الصحف ثم خرج بمؤلفه فى التفسير « الجواهر فى تفسير القرآن » .

وقد عَنِىَ فى هذا التفسير عناية فائقة ، بالعلوم الكونية ، وعجائب الخَلْق ، ويقرر فى تفسيره أن فى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، ويهيب بالمسلمين أن يتأملوا فى آيات القرآن التى تُرشد إلى علوم الكون ، وبحثهم على العمل بما فيها ، ويفضلها على غيرها فى الوقت الحاضر ، حتى على فرائض الدين ، فيقول : « يا ليت شعرى : لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث ؟ ولكنى أقول : الحمد لله ، الحمد لله ! إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم ، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض ، لأنه فرض كفاية ، فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله ، وهى فرض عين على كل قادر » ويأخذ الغرور منه مأخذه ، فينحى باللائمة على المفسِّرين السابقين ، ويقول : « إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام ، فهذا زمان الانقلاب ، وظهور الحقائق ، والله يهدى مَن يشاء إلى صراط مستقيم » .

والمؤلف يخلط فى كتابه خلطًا ، فيضع فى تفسيره صور النبات والحيوانات ومناظر الطبيعة ، وتجارب العلوم كتاب مدرسى فى العلوم ، ويشرح بعض الحقائق الدينية كما جاء عن أفلاطون فى جمهوريته ، وعن إخوان الصفا فى رسائلهم ، ويستخدم الرياضيات ، ويفسِّر الآيات تفسيرًا يقوم على نظريات علمية حديثة .

وقد أساء الشيخ طنطاوى جوهرى فى نظرنا بهذا إلى التفسير إساءة بالغة من حيث يظن أنه يُحسن صنعًا ولم يجد تفسيره قبولاً لدى كثير من المثقفين ، لما فيه من تعسف فى حمل الآيات على غير معناها ، ولذا وُصفَ هذا التفسير بما وُصِفَ به تفسير الفخر الرازى ، فقيل عنه : « فيه كل شىء إلا التفسير » .

* * *

٢ - تفسير المنار - للسيد محمد رشيد رضا

لقد قام الشيخ محمد عبده بنهضة علمية مباركة ، آتت ثمارها فى تلاميذه ، وترتكز هذه النهضة على الوعى الإسلامى ، وإدراك مفاهيم الإسلام الاجتماعية ، وعلاج هذا الدين لمشاكل الحياة المعاصرة ، وبدأت نواة ذلك فى حركة جمال الدين الأفغانى ، الذى تتلمذ عليه الشيخ محمد عبده ، وكان الشيخ محمد عبده يلقى دروسًا فى التفسير بالجامع الأزهر ، ولازمه كثير من طلابه ومريديه ، وكان الشيخ رشيد ألزم الناس لهذه الدروس ، وأحرصهم على تلقيها وضبطها ، فكان بحق الوارث الأول لعلم الشيخ محمد عبده ، فظهرت ثمرة ذلك فى تفسيره المسمى بـ« تفسير القرآن الحكيم » ، والمشهور بـ « تفسير المنار » ، نسبة إلى مجلة « المنار » التى كان يصدرها .

وقد بدأ تفسيره من أول القرآن ، وانتهى عند قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن ، وهذا القدر من التفسير مطبوع فى اثنى عشر مجلدًا كبارًا .

وهو تفسير غنى بالمأثور عن سالف هذه الأمة من الصحابة التابعين ، وبأساليب اللُّغة العربية ، وبسُنَن الله الاجتماعية ، يشرح الآيات بأسلوب رائع ، ويكشف عن المعانى بعبارة سهلة ، ويوضح كثيرًا من المشكلات ، ويرد على ما أُثير حول الإسلام من شبهات خصومه ، ويعالج أمراض المجتمع بهَدى القرآن ، ويُصرِّح الشيخ رشيد

---

(١) يوسف : ١٠١

بأن هدفه من هذا التفسير هو : « فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة » .

* * *

٣ - فى ظلال القرآن - لسيد قطب

تعتبر حركة الإخوان المسلمين التى قام بها الشهيد حسن البنا كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة بلا مراء ، ولا يستطيع أحد من خصومها أن يُنكر فضلها فيما أحدثته من وعى فى العالم الإسلامى كافة ، فَجَّرَ طاقات الشباب المسلم لخدمة الإسلام ، وإعزاز شريعته ، وإعلاء كلمته ، وبناء مجده ، واستعادة سلطانه .

ومهما قيل فى الأحداث التى وقعت على هذه الجماعة فإن أثرها الفكرى لا يجحده إنسان .

وبرز من رجال هذه الجماعة العالِم الفذ ، والمفكر الألمعى ، الشهيد سيد قطب ، الذى فلسف الفكر الإسلامى ، وكشف عن مفاهيمه الصحيحة فى وضوح وجلاء ، وقد لقى الرجل ربه شهيدًا فى سبيل عقيدته وترك تراثه الفكرى ، وفى مقدمته كتابه فى تفسير القرآن ، المسمى « فى ظلال القرآن » .

والكتاب تفسير كامل للحياة فى ضوء القرآن وهَدى الإسلام ، عاش مؤلفه فى ظلال الذكر الحكيم كما يُفهم من تسميته - يتذوَّق حلاوة القرآن ، ويُعبِّر عن مشاعره تعبيرًا صادقًا ، انتهى فيه إلى أن الإنسانية اليوم فى شقائها بالمذاهب الهدَّامة ، وصراعها الدامى من حين لآخر ، لا خلاص لها إلا بالإسلام ، يقول فى المقدمة : « وانتهيتُ من فترة الحياة فى ظلال القرآن - إلى يقين جازم حاسم . . أنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ، ولا طهارة ، ولا تناسق مع سُنَن الكون وفِطرة الحياة . . إلا بالرجوع إلى الله .

والرجوع إلى الله - كما يتجلى فى ظلال القرآن - له صورة واحدة - وطريق واحد . . واحد لا سواه . . إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذى رسمه للبشرية فى كتابه الكريم ، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده فى حياتها ، والتحاكم إليه

وحده فى شئونها ، وإلا لهو الفساد فى الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس فى الحمأة ، والجاهلية التى تعبد الهوى من دون الله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

إن الاحتكام إلى منهج الله فى كتابه ليس نافلة ولا تطوعًا ولا موضع اختيار ، إنما هو الإيمان . . أو فلا إيمان : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُم لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

ومن هذا المنطلق نَهَجَ سيد قطب فى تفسيره ، وهو يأتى أولاً بظلالة فى مقدمة السورة ، تربط بين أجزائها ، وتوضح أهدافها ومقاصدها ، ثم يشرع بعد ذلك فى التفسير ، فيذكر المأثور الصحيح ، ويضرب صفحًا عن المباحث اللُّغوية مكتفيًا بالإشارة العابرة ، ويتجه إلى إيقاظ الوعى ، وتصحيح المفاهيم ، وربط الإسلام بالحياة .

والكتاب يقع فى ثمانى مجلدات ، وقد طُبِعَ عدة طبعات ، فى سنوات معدودة ، لما له من رواج كبير لدى المثقفين .

وهو بحق ثروة فكرية اجتماعية هائلة لا يستغنى عنها المسلم المعاصر .

* * *

٤ - التفسير البيانى للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

من نسائنا المعاصرات اللاتى أسهمن بنصيبهن فى الأدب العربى والفكر الاجتماعى - الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، المشهورة بـ « بنت الشاطئ » .

---

(١) القصص : ٥٠ (٢) الأحزاب : ٣٦

(٣) الجزء الأول - المجلد الأول (ص٨) - (والآية من سورة الجاثية : ١٨ - ١٩) .

وقد تولَّت التدريس فى كلية الآداب بالقاهرة ، وفى كلية التربية للبنات ، وتناولت فى تدريسها تفسير بعض سور القرآن القصار ، وطبعت ذلك فى « التفسير البيانى للقرآن » .

وبنت الشاطئ تهتم فى تفسيرها بالبيان العربى وتذكر فى المقدمة أنها اهتدت إلى هذه الطريقة لمعالجة مشكلاتنا فى حياتنا الأدبية واللُّغوية ، وأنها بحثت ذلك فى عدة مؤتمرات دولية ، ففى مؤتمر المستشرقين الدولى فى الهند سنة ١٩٦٤ - كان موضوع البحث الذى شاركت به فى شُعبة الدراسات الإسلامية هو « مشكلة الترادف اللُّغوى ، فى ضوء التفسير البيانى للقرآن الكريم » تقول : « وفيه بيَّنتُ كيف شهد التتبع الدقيق لمعجم ألفاظ القرآن - واستقراء دلالاتها فى سياقها ، بأن القرآن يستعمل اللَّفظ بدلالة محدودة ، لا يمكن معها أن يقوم لفظ مقام آخر ، فى المعنى الواحد الذى تحشد له المعاجم اللُّغوية وكتب التفسير ، عددًا قل أو كثر من الألفاظ المقول بترادفها » .

وتعيب بنت الشاطئ على الانشغال فى دروس الأدب بالمعلقات والنقائض والمفضليات ومشهور الخمريات والحماسيات عن الاتجاه إلى القرآن الكريم ، ثم تقول : « ونحن فى الجامعة نترك هذا الكنز الغالى لدرس التفسير ، وقَلَّ فينا مَن حاول أن ينقله إلى مجال الدراسة الأدبية الخالصة التى قصرناها على دواوين الشعر ، ونثر أمراء البيان » .

والتفسير البيانى محاولة لا بأس بها لتحقيق الأغراض التى تهدف إليها بنت الشاطئ ، وهى تعتمد فى ذلك على كتب التفسير التى لها عناية بوجوه البلاغة القرآنية ، وتُعبِّر تعبيرًا أدبيًا راقيًا [١] .

* * *

(١) من محاذير هذا النهج فى التفسير أنه يُغفل جوانب القرآن المتعددة من أسرار الإعجاز فى معانيه وتشريعاته ، وأحكامه ومبادئه للحياة الإنسانية الفاضلة ، ويتخذ من النص القرآنى مادة للدراسة الأدبية كالنص الشعرى أو النثرى ، ودراسة النصوص الأدبية تعتمد على الذوق اللُّغوى الذى يتفاوت من شخص لآخر بتفاوت ثقافته .